

لا يمكننا التعبير بالكلمات عن أهوال الحاضر،

لا يمكن التعبير بالكلمات عن جثث القتلى التي تظهر معالمها من خلال الأكياس البلاستيكية. [\*] ف لا يمكن أن تنوب الكلمات عن وجوه مترعة ب اليأس والنشوى وهي ترغي وتزبد عبر شاشات التلفزة، وجوه اكتست بالكراهية والجنون والتصميم على الموت، وجوه عُرضت عليها حقيقة "الأضرار الجانبية" عبر مقاطع فيديو مصورة على الهواتف الجواله حتى قبل أن يخفت أزيز الطائرات بلا طيار.



تغير توازن القوى في عالم الصورة

لا يمكن لأي ممن شهدوا الإفلاس الأخلاقي لوسائل الإعلام أثناء الحملة العسكرية التي شنت على العراق أن يراوده أدنى وهم إزاء ما تعرضه علينا شبكات التلفزة في العالم. و لكن هناك تغيير يطرأ على نمط نشر الصور. حيث يظهر للعيان المزيد والمزيد عن حقيقة "فن الحكم أو اللعبة السياسية " و"الردع". وهي الحقيقة التي تكمن في قلب الحادثة. ولما يزيد عن قرن من الزمان أضفى كلا من مصطلحي الحادثة وإرهاب الدولة الذي يمارس من عل، من الجو - الحادثة والقتل الجماعي للمدنيين - معنى على الآخر ، وساهم كل في بلورة محتوى الآخر . إلا أن هذه العلاقة لم تكن من قبل على هذه الدرجة من الفورية والوضوح والكلية.

ويشير هذا الموقف ، هذا الوضوح ، غضب قوى النظام

ف قد صرح دونالد رامسفيلد قائلاً "لا تزال حكومتنا الفيدرالية في واقع الأحر في بداية تكييف عملياتها العسكرية مع القرن الحادي والعشرين. إذ نخوض اليوم أول حرب في التاريخ، تتسم بشكل كبير بأنها غير تقليدية وغير نظامية، في عصر البريد الإلكتروني والمدونات والهواتف الجواله وأجهزة البلاك بيري والرسائل الفورية والكاميرات الرقمية وشبكة الإنترنت العالمية التي لا ضوابط لها، ولاروادع تقمعهها، وكاميرات الفيديو المحمولة وبرامج الإذاعة الحوارية ونشرات الأخبار التي تبتث على مدار الساعة والفضائيات. ولم تدر حرب من قبل في مثل هذه البيئة." (جاء هذا في كلمة رامسفيلد أمام مجلس العلاقات الخارجية في 17 فبراير/شباط 2006). وتنهذ

قائد عمليات التعذيب والتدمير الكبرى قانلاً: إن هذا ظلم شديد. فهذا يذيب الفروق بين ما نمارسه من إرهاب وما يمارسونه هم.

1. **بعد ثلاث سنوات من غزو العراق، ما هو كشف حساب الجولة الجديدة التي تخوضها الإمبراطورية؟ هل ينبغي أن تأخذ لحظة القنوط التي انتابت رامسفيلد مأخذ الجد؟ هل تعتبر الهزيمة في حرب الصور ( إذا ما كان لنا أن نطلق لفظ "الهزيمة" على التأثير النهائي لما حدث في أبو غريب وغزة والفالوجة وقا) جزءاً من أزمة الهيمنة الأمريكية الأوسع نطاقاً؟ وربما يسهل رسم صورة للولايات المتحدة الأمريكية وهي تواجه فشل مخططاتها الاستراتيجية. فما أحدثته الحرب الأهلية في العراق من بؤس وشقاء وموجة الغضب التي لا تنتهي في أنحاء الأمة الإسلامية، وتولي حماس للسلطة (الزائفة) وما تمارسه إسرائيل من عنف بلا ضوابط، ومرونة حزب الله والخوف من انتشار هلال المقاومة من جنوب لبنان إلى سوريا والعراق وإيران (وهو خوف حقيقي في جزء منه ومصطنع في الآخر) بل حتى المشهد العجيب لكل من أحمدى نجاد وهوغو شافيز وهما يقبلان صواريخ الكاتيوشا... هل يمكن أن يكون ما سبق هو ما دار في ذهن ديك تشيني وازنار؟**

ولكن حذار من اعتبار أن فوضى الإمبريالية العادية (التي لا تغتفر) دلالة على أن الإمبراطورية تعاني أزمة. فالإمبراطوريات في الأغلب لا تعبأ بالقواعد ولا القوانين وأيديها ملطخة بالدماء. فتلك أمور تحدث! حسب تعبير رامسفيلد الأثير. والبرابرة قادمون. إلا أن الإمبراطوريات تعيش، بل وتزدهر على فوضاها الخاصة. ولنعد النظر إلى السنوات الثلاث الماضية، وسل نفسك إذا لم تكن الحقيقة المهيمنة هي أن الولايات المتحدة الأمريكية قدنجحت، برغم مرارة المفارقات، في تأكيدها إرادتها الإمبريالية؟ وبالكاد تظاهر "المجتمع الدولي" بالمقاومة. ويتعين على أي تقرير للواقع في حاضرنا الراهن أن يتعامل بجديّة مع احتمالية أن القوة العظمى الوحيدة قادرة على سحق معارضيه أو تهيمشهم، والمضي قدماً في تحقيق على ما ترغب فيه. ولكن إلى هنا تنتهي حدود التشاؤم. إذ تقوم الهيمنة على القوة، ولكنها تقوم أيضاً على القبول. فحتى الملوك العملاء (رؤساء الوزراء المنبطحين) يمكن إسكاتهم عن طريق تجليات الحرب المريعة.

2. **ماذا يمكن أن نخبرنا به خراب العراق عن حدود القوة الأمريكية؟ لم يكن أكثر الساحرين تشاءماً ليتوقع عواقب الاحتلال القاتمة. ففي أواخر سبتمبر/أيلول 2004 - وهو شهر اعتيادي حسب تعبير البنيتاجون - بلغ عدد الهجمات التي شنتها المقاومة ما يزيد عن 2300 هجوم. ولم يتمكن نصف الشعب العراقي من الإدلاء بصوته في الانتخابات بأمان. وبعد سنتين من ذلك التاريخ، تجاوز عدد القتلى المدنيين 40 - 50 ألف قتيل... من يستطيع أن يخبرنا بالرقم الدقيقاً؟ وتشهد بغداد يومياً حوالي أربعين هجوماً ويصل عدد الهجمات اليومية في العراق بأسرها إلى مائة هجوم تقريباً. وقد امتلأت المشارح بجثث القتلى. بينما اقتصرت الحرية والديمقراطية على الملاجئ مكيفة الهواء داخل المنطقة الخضراء. وأصبحت منطقة مدينة الصدر البالغة الفقر والمترامية الاتساع مركزاً للإرهاب. في حين تجوب عربات الهامفي المصفحة طرقات الفالوجة حاملة جثث عراقيين مقيدين إلى أجسام العربات كغزلان مشبوحة، بينما تلتصق بالعربات بقايا أمخاخ تشويها الشمس. ولنتذكر كلمات ذلك المسلح صغير السن من مقاطعة يوركشير الذي فجر نفسه ضمن تفجيرات لندن إذ قال "إن ديمقراطيتكم قد انتخبت حكومات ارتكبت باستمرار أعمال وحشية ضد شعبي، ودعمكم لها يجعلكم مسئولين مسئولية مباشرة... لن نوقف تلك الحرب" ومع كل هذا فما هما بوش وبلير يطلعان علينا بتلك "البداية الجديدة" التي أعلنها من شهرين.**

3. **و ثمة العديد من الدول التي ينتظرها ما ي حدث في العراق. ففي نفس الوقت الذي نكتب فيه هذه السطور، يسقط مئات القتلى في غزة ولبنان ضحايا للقتال الأمريكية التي يمطرهم بها الطيارون الإسرائيليون من طائرات أمريكية الصنع. وتعترض الولايات المتحدة الأمريكية بمفردها تقريبا سبيل التوصل إلى وقف إطلاق النار، و من ال سهل رؤية ما لهذا من تأثيرات على مصداقيتها في المنطقة. [1] ول يست هذه الموافقة الأوتوماتيكية على الجولة الجديدة من الإرهاب الإسرائيلي إلا أحدث تجليات سلسلة طويلة من وله حكومة الولايات المتحدة الأعمى بصنيتها في المنطقة. وأي كان التفكير الاستراتيجي الذي ينطوي عليه هذا الموقف - من عزل سوريا والقضاء على النفوذ الدولي للشيعية وإعادة اللبنانيين المسيحيين إلى حظيرة الولايات المتحدة الأمريكية - يبدو أن شيئاً خارج نطاق العقل هو المسئول. فالولايات المتحدة ترى نفسها في مرآة إسرائيل. فهي ترى الحداثة التي تؤمن بها إيماناً شديداً بطبيعتها الديموقراطية ونزعتها الاستهلاكية،**

وهي تتجسد في سرعة رد الفعل الجبري ذي الطبيعة العسكرية. إذ يٌسمح لإسرائيل أن تمارس القتل من الجو ، بل وأن تفعل هذا بتعجرف ودون قيود - فالولايات المتحدة قد سمحت لنفسها با رتكاب نفس الفظائع . ولا يمكن لجماعات الضغط الإسرائيلية ولا للمتشددين المسيحيين الذين يؤمنون بعودة المسيح الذي يحكم المسيح دفع الأمريكيين لمثل هذا الجنون السياسي الجغرافي بدون هذا الربط المفرط المرضي بين القوى المهيمنة وقرين ها الصهيوني.

4. وفي نفس الوقت ، تظهر خارج حدود الأراضي الأمريكية المعززة أمنياً جغرافياً جديدة لإرهاب الدولة. وتعتبر أفغانستان وبولندا ورومانيا محطات على طريق تلك الجغرافيا، أما ريفها فعبارة عن جولاج مواقع سوداء تمتد في سائر أنحاء الأرض ويخدمها جهاز "الإعادة الجبرية". (وهي كلمة مشتقة من تاريخ العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية، ويشير هذا المصطلح إلى إعادة الهاربين من العمال جبرياً إلى مزارع الجنوب). ويعتبر معتقل جوانتانامو الوجه العمومي للسافر لتلك الدولية الجديدة، و الذي يخفي عالم السفلي ا خارج حدود التشريعات القومية من المعتقلين والمفقودين، شحنة بلا ملامح حملها عملاء بـ "هويات عقيمة" على طائرات مجهولة الهوية. و مثلما لم يجد رأس المال راحته وحرية المطلقة داخل حدود أراضي الأمة - الدولة وسعى عادة إلى إيجاد المقاطعات التي تحيطها حدود دول أجنبية والمخازن والمراكز التجارية المعفاة من الجمارك والعمل خارج الحدود والتعاقد الخارجي. ها هي "بؤر التعذيب" تنتهج هي الأخرى السبيل نفسه، وتخلق المعادل الخاص بها لل ملاحج الضريبية ، ومصانع التجميع والتصنيع المعفاة من الجمارك ، في رسم خرائط جديدة للمشروع الحر .

5. إن الإرهاب السري الذي يمارس خارج الحدود يعادله داخل حدود الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة سعي الدولة بلا هوادة إلى إضفاء الشرعية على عدم قانونيتها. ولطالما تمكن "الديمقراطيون" ببراعة من مراعاة القواعد والمواثيق أو تجاهلها حسبما يتناسب مع مصالحهم . إلا أن محور الولايات المتحدة والمملكة المتحدة الحالي يعمل على إعادة فرض الحصانة السيادية المطلقة من خلال التفكيك الهيكل لسيادة القانون. فقد أعلن اعتبار التعذيب والاعتقال امتيازاً للسلطة التنفيذية، وتم تجاهل المحاكم الدولية، و عطلت أوامر مثول المعتقل أمام المحكمة لتحديد شرعية حبسه . كما أ بطلت المحاكمة أمام المحاكم، و أطيح ب الخصوصية والحريات الشخصية. إذ تسع ي ال دولة الهويزية الجديدة إلى التحرر من ال أ غلال والقيود في كل تحركاتها ، وإلى تخويف مواطنيها و ترويعهم وعزلهم بدواعي م اي سمي "الأمن". فقد مضى الزمن الذي كان القانون فيه يوفر سبلاً دفاعية في مواجهة السلطة المفرطة، إلا إن هذه الإستراتيجية تعتمد على استعداد الدولة للاعتراف بحدودها. ولم يبق وجود لهذا الاستعداد. وتقتصر المعارضة الفعالة مرة أخرى على المقاومة الشعبية، على التحرك والضغط المباشر من الشارع، إن ما تمارسه الدولة من محو واسع النطاق للقيود القانونية يفرغ بسرعة مفاهيم "حقوق الإنسان" التي حظيت بالاحترام على مر الزمن من كل معانيها.

6. في النهاية ما مدى قوة الرأسمالية في عصر الحرب الحالي؟ هل لا يزال النفط هو م نشط العصر؟ لم ي قصد أبداً من احتلال العراق وتدميره إشباع إدمان أمريكا للبتترول. ولم يقصد منها أيضا الاعتصاب المنفرد ل مورد شحيح. لقد داعب حلم حرب يدفع النفط فاتورها خيال رجال النفط في البيت الأبيض ، ولكن مع اتخاذ تكديس المواد الخام هدفاً، أي الاستيلاء على حقل جديد للمواد الخام وقوة عاملة محتملة. ولكن التاريخ أظهر خلاف ذلك. فإذا كان بمقدور الولايات المتحدة أن تفعل ما تشاء، فإن ذلك لا يعني قطعاً أنه يمكنها أن تحصل على ما ترغب. حيث نجد النفط العراقي في حالة يرثى لها، فقد صممت الآبار ، وخربت خطوط الأنابيب ، وسقطت محطات التوزيع ضمن خسائر الحرب الأهلية، وفي الوقت نفسه لا تصب السرقة والفساد في مصلحة وزارة الخزانة الأمريكية، وإنما تعملان في صالح المتمردين والمقاومة . ولا يزال الأمريكيون يأملون في أن قانون ال نفط الجديد س يمنح الشركات الأمريكية الكبرى ثلثي احتياط البترول العراقي . إلا أن أحلام بريمر بخصخصة نموذجية ذهبت أدراج الرياح. و كان طبيعياً أن تزدهر أسواق النفط العالمية على أعمال التمرد والفوضى في العراق . فقد أعلنت شركة إيكسون موبيل عن تحقيق أعلى صافي ربح في تاريخها، وحقت الشركات الكبرى الأربعة أرباح تزيد عن 40 مليار دولار في عام 2005. إلا إن هذه الشركات ينتابها القلق لأسباب وجي ه ه. فقد أشار نفس من كانوا بالأمس من دعاة الحرب في الكونجرس ، أشاروا الآن إلى "الأرباح غير المعقولة" وطالبوا بـ "ضرائب على أرباح النفط غير المبررة وغير المتوقعة". ولا تبشر الاحتمالات بخير. فهناك خيط

رفيع ما بين الريح والفضى. فلم يسبق أن اقترب انهيار إستراتيجية الحصول على النفط التي تتبعها الولايات المتحدة إلى هذه الدرجة. فقد أمم أيفو مورال رئيس بوليفيا آبار بترول بلاده . وشافيز يطالب بأن تمتع منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) بمزيد من الحزم، في حين تقع آبار بترول أفريقيا والبحر الأسود في متناول الصين - وهي أكثر انعداما للشفقة وفساداً من شركات النفط الكبرى. ونقلا عن أحد رجال المخابرات الأمريكية فإن ما ترغب فيه صناعة النفط هو سوق دولية مستقرة. ولكم ما قدمته الليبرالية العسكرية الجديدة إلى الآن دماء ونيران. لا بترول.

7. **قد نعيش الآن بداية حرب عالمية ثالثة، أو لا.** أن الشبكات التي يعرفها الجميع قد تعجل بنشوب صراع عالمي يروح ضحيته عشرات الملايين لا عشرات الآلاف. إن ما هو قائم - وما نوجه في المستقبل القريب - على درجة كافية من السوء. فعند محاولة وصف نمط المصالح والأيدولوجيات التي على المحك في حمام الدم، نجد أنفسنا وقد عدنا إلى أفضل من واجهوا أول صدام عالمي منذ مائة عام. ونستشهد بما قاله جونز بامفليت "أن فن الحكم الرأسمالي وقع في فخ من صنعه، ولا يمكنه طرد الأرواح الشريرة التي استحضرها".

8. **إن الرأسمالية والعسكرة تشكيلان مختلفان لكل منهما منطق خاص به.** وهو ما ينطبق على الرأسمالية والقومية والرأسمالية والحداثة والرأسمالية والدولة. وبالمثل ينطبق هذا على معادة الرأسمالية والإسلام الثوري. ولكن عند النظر في كل زوج مما سبق، يبدو لنا أن الرأسمالية حالياً هي القوة المهيمنة. فهي تطرح الشروط وتحدد القيود وي وجه ما لها من عدم استقرار (رغبتها غير المستقرة في صناعة العالم) الفوضى الأوسع نطاقاً. ولا يمكن إيقاف الحاجة إلى أسواق جديدة، ولكن يبدو أنه لا يمكن دائماً تشكيل هذه الأسواق عن طريق قوة السلاح. فطرد الأرواح الشريرة من العراق لم يجني إلا العنف وإراقة الدماء. فقد تحطمت منظمة التجارة العالمية في الدوحة. وعلى الرغم من هذا يتعين إعادة خطيئة السرقة الأولى إذا أريد استمرار تراكم رأس المال. ولا يزال السبيل إلى القرن القادم قابع في يد "فن الحكم" الرأسمالي واحتمالية بزوغ أشكال جديدة من المقاومة له.

---

[\*] يرجع تاريخ كتابة هذا السطور إلى الأيام الأولى من الحرب الإسرائيلية على لبنان في يوليو/تموز 2006. وستظهر كجزء من التقديم الذكي لكتاب "القوى المفجعة" في المؤتمر الدولي الثاني للفنون المعاصرة والذي يعقد كل عامين وتدور فعالياته في سيفيلي في الفترة من أكتوبر/تشرين الأول 2006- يناير/كانون الثاني 2007. وقد شارك في هذا الكتاب كلا من إيان بول، جيمس بروك، تي. جا. كلارك، جوزيف ماثيوز، فرنسوا مورتى، أن وانجر، ميشيل واطس وجايل وايت.

[1] وكما هو متوقع لم يستغرق الأمر إلا أيام واستسلمت الدول الأعضاء في مجلس الأمن، وظهر شيراك وبرودي جنباً إلى جنب مع المسكين توني بليير. ولا يزال يتردد صدى الطبيعة الفريدة ل رعاية الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل أثناء المراحل الاستهلاكية عديمة الرحمة من الحرب. فقد ظلت شاشات التلفزة تعرض كل ليلة مقطع الفيديو الذي تظهر فيه كوندليزا رايس مرحبة بـ "الآلام مخاط شرق أوسط جديد" بينما تشتعل النيران في جنوب بيروت. وهي صورة جديدة تضاف لصور أبو غريب وقانا.

نشر الأصل الانجليزي لهذا المقال في مجلة New Left Review 41 Sep/Oct 2006